Dirasat: Human and Social Sciences, Volume 50, No. 6, 2023

Deanship of Scientific Research

Byzantium's Take on the Second Crusade: A Comparative Study between Byzantine and Crusader Sources 539-542 AH/ 1145-1148 AD

Aisha Marshood Hamid Al-Harbi*

Department of Social Sciences, College of Arts and Humanities, Taibah University, Saudi Arabia.

Received: 17/4/2022
Revised: 20/11/2022
Accepted: 6/2/2023
Published: 30/11/2023

* *Corresponding author:*
ay.1430@hotmail.com

Citation: Al-Harbi, A. M. H. (2023). Byzantium's Take on the Second Crusade: A Comparative Study between Byzantine and Crusader Sources 539-542 AH/ 1145-1148 AD. *Dirasat: Human and Social Sciences*, *50*(6), 365–377.
https://doi.org/10.35516/hum.v50i6.1081

Abstract

Objectives: This study aims to analyze Byzantium's take on the Second Crusade, which could be traced back to the empire's political tension with the Normans prior to the campaign and its effect on the Byzantines' attitude towards the campaign's preaching. It also examines the Byzantines' reaction to the French and German forces upon crossing their borders and the repercussions of this act for both parties (other than the campaign's failure).

Methods: This study is based on analyzing and comparing the Byzantine and Crusader sources. It also discusses modern scholars' perspective on the Byzantium's position on the Second Crusade and the reasons behind the campaign's failure.

Results: The development of the Byzantine-Western relations during the Second Crusade proved that the Crusader's project which coincided with the First Crusade was not an exceptional event but rather a recurring phenomenon that used to appear whenever the Crusaders' existence was threatened. From the Crusaders' viewpoint, Byzantium, as a Christian empire, had to put all its resources unconditionally at the service of this project. This posed a direct threat to Byzantium which took precautionary measures to ensure its security, irritating the Crusaders.

Conclusion: The Second Crusade, led by Europe's prominent monarchs, posed challenges for Byzantium in securing pledges for its national security. Tensions heightened after the campaign's failure, leading to accusations against Byzantium and the promotion of a new crusade against it.

Keywords: Byzantine, Crusaders, Normans, Second Crusade, West.

موقف الإمبراطورية البيزنْطِيَّة من الحملة الصليبية الثانية دراسة مقارنة بين المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية 539-542هـ/ 1145-1148م

عائشة مرشود حميد الحربي*

قسم العلوم الاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة طيبة، السعودية.

ملخّص

الأهداف: يهدف البحث إلى تحليل موقف بيزنطة من الحملة الصليبية الثانية، بداية من التوترات مع النورمان قبل انطلاقها، وبيان أثر ذلك في رد الفعل البيزنطي تجاه الدعوة إليها، وكذا تجاه القوات الألمانية والفرنسية خلال عبورها أراضيها، وما نتج عن هذا، فضلًا عن فشل الحملة، من نتائج وردود أفعال للطرفين.

المنهجية: يقوم البحث على تحليل ومناقشة المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية، ومقارنتها، ومناقشة آراء الباحثين المحدثين حول الموقف البيزنطي من الحملة ومسئولية فشلها.

النتائج: أثبت تطور العلاقات البيزنطية الغربية في أثناء الحملة الصليبية الثانية أن المشروع الصليبي الذي أسس كيانه في الحملة الصليبية الأولى، لم يكن حدثًا استثنائيا بل ظاهرة متكررة كلما تعرض هذا الكيان للخطر. وبعدّها إمبراطورية مسيحية، كان على بيزنطة –من وجهة النظر الصليبية- أن تضع مقدراتها في خدمة هذا المشروع دون قيد أو شرط. وهذا شكل تهديدًا مباشرًا على بيزنطة، وانعكس في الإجراءات الاحترازية التي اتخذتها لضمان أمنها خلال عبور الصليبيين، وأنتج ردة فعل صليبية غاضبة تجاهها .

الخلاصة: قاد الحملة الصليبية الثانية، عكس نظيرتها الأولى، أكبر عاهلين في أوروبا من ذوي المكانة التي جعلت مهمة بيزنطة في انتزاع تعهدات منهما بأمن أراضيها أكثر صعوبة. وقد أحدث هذا توترًا في العلاقات بين الطرفين، ظهرت آثاره عقب فشل الحملة مباشرة. إذ بدأت أصابع الاتهام تتجه إليها بوصفها المسؤولة بسلوكها عن هذا الفشل. ومع ترويج شعار الخيانة البيزنطية في الغرب، تعالت الأصوات بصليبية جديدة ضد بيزنطة ذاتها.

الكلمات الدالة: بيزنطة، الصليبيون، الحملة الثانية، النورمان، الغرب.

© 2023 DSR Publishers/ The University of Jordan.

This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY-NC) license https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

المقدمة

تناول هذا البحث دراسة موقف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة من الحملة الصليبية الثانية: دراسة مقارنة بين المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية، وهو من الموضوعات المهمة في تاريخ العلاقات بين الغرب الأوروبي من جهة، وبيزنطة والمشرق الإسلامي من جهة أخرى في تلك الآونة، وستكون لهذه الدراسة أهميتها في تحليل ومناقشة موقف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة من الحملة الصليبية الثانية، بعد الاطلاع على المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية، ومقارنتها بعضها مع بعض، والوقوف على آراء المؤرخين المحدثين.

وتتمثّل أهداف البحث في: البحث من خلال المصادر البيزنطية وأيضا الصليبية باختلاف منابعها، في طرح جذور العلاقات بين بيزنطة وقوى الغرب الأوروبي في القرن الثاني عشر الميلادي، ومدى انعكاسها على موقف الإمبراطورية البيزنطية من الحملات الصليبية، وتحديدا الحملة الصليبية الثانية – موضوع الدراسة - بداية من علاقتهم بالنورمان، وبيان درجة تأثر الدعوة إلى الحملة بموقف بيزنطة تجاهها، ومعرفة موقف بيزنطة من الحملة الفرنسية وتأثيره في مشكلة إمارة أنطاكية، والكشف عن أثر الموقف البيزنطي من الحملة في أحداثها، وما أسفرت عنه في النهاية من نتائج.

ومن الدراسات السابقة للموضوع، دراسة ديفيد نيكول David Nicolleبعنوان: The Second Crusade 1148Disaster outside Damascus. وبالرغم من أن هذه الدراسة خدمت الموضوع في بعض جوانبه، وأزالت الغموض الذي شاب تلك الجوانب؛ لكن موضوع موقف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة من الحملة الصليبية الثانية ما زال بحاجة إلى لمزيد من الدراسة والتحليل.

وقد اعتمدت دراستنا على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي؛ بغرض الوصول إلى الحقيقة التاريخية نسبيًّا، وشمل نطاق البحث عدة مباحث، وهي: التمهيد بتوضيح المقصود بتلك المصادر المشار إليها، ثم الحديث عن العلاقات العدائية بين الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة والنورمان وأثرها في الصليبيين، وكيف تأثرت الحملة بموقف بيزنطة من الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية، ثم بيان موقف المصادر التاريخية في موقف بيزنطة من القوات الألمانية، ثم موقف بيزنطة من القوات الفرنسية وأثره في مشكلة إمارة أنطاكية الصليبية، وتوضيح أثر الموقف البيزنطي في مجريات الحملة، وفشلها في تحقيق أهدافها، ثم مناقشة آراء المصادر والدراسات المعاصرة من الموقف البيزنطي من الحملة، وفي النهاية الخاتمة ويتم فيها تناول أهم النقاط التي جرى طرحها ومناقشتها، وأهم النتائج التي جرى التوصّل إليها.

التمهيد:

نظرًا إلى أن الدراسة تتعلّق بموقف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة من الحملة الصليبية الثانية: دراسة مقارنة بين المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية؛ لذلك كان لزاما في تناول الدراسة الرجوع إلى العديد من المصادر البِيزِنْطِيَّة ، التي من أبرزها ما دوّنه المؤرخ يوحنا كيناموس John Kinnamos، الذي ولد فى الفتره ما بين عامي 1143- 1144م /537-538هـ، وعمل سكرتيرًا لدى الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنيين؛ وخلفائه من بعده، وقد توفي كيناموس في عام 1203م/599هـ، مما أعطى لمؤلفه مختصر التاريخ Epitome Historiarum أهمية لهذه الدراسة، واتسم هذا المصدر بالدقه والمعرفه والإسهاب في رصد الأحداث التى كان شاهد عيان عليها، وتحفظ بشدة على كل ما أخذه عن الآخرين عند تسجيله للأحداث التي لم يشهدها بنفسه، ويتضح من قراءة هذا التاريخ كثرة ما أشار إليه من النصوص والوثائق الرسمية المتوفرة فى البلاط البيزنطي بحكم عمله، وهذا مما جعله من المصادر الرئيسيه للدراسة، إلا أنه يجب التعامل بحذر مع المعلومات المأخوذة عن كيناموس؛ وذلك لأنه كان محبًا للإمبراطور مانويل، ولذا أعطى أعماله أهمية ومكانة خاصة، وأسدل عليها نوعًا من البطولات الأسطورية (عمران،2006م، 293،نيكول،2003م،256)، أما نيكتاس خونياتسNiketas Choniates ،الذي ولد في عام 1155م/550هـ فقد تقلد العديد من المناصب الهامة التي ترتبط بالبلاط الإمبراطوري في عهد الإمبراطور مانويل كومنيين وخلفائه؛ وبدأت مكانة نيكتاس في الارتفاع شيئا فشيئا حتى أصبح في عام 1188م/584هـ المسئول الثاني عن خزانة الإمبراطورية، وبعدها أصبح حاكما لمدينة فيليبوبوليسPhilippolis[1]، مما ساعد على سهولة اتصاله بالشخصيات الكبرى، التي لها دورٌ فاعلٌ في تحريك الأحداث(زايد،2015م، 62) ، واتضحت أهمية ذلك في مؤلفه المعنون باسم التاريخ، وبالرغم أن نيكتاس لم يذكر المصادر التي جمع منها تاريخه إلا أنه من المؤكد أن المناصب التي تبوأها قد مهدت له الطريق للاتصال بالشخصيات الكبرى التي تحرك دفة الأحداث ورجال البلاط، وقد اعتمد على الروايات الشعبية وبالذات التي تتعلق بعلاقة الإمبراطور مانويل كومنيين بالحملة الصليبية الثانية (عمران،2006م،298).

ولما كان هذا البحث يتناول طرفا من العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية، والأطراف المرتبطة بالحملة الصليبية الثانية، تحتم الإشارة إلى أن المقصود بالمصادر الصليبية - سواء المعاصرة أو المتأخرة زمنيًّا عن موضوع البحث - إذ إنه من المعروف أن الحروب الصليبية قد جمعت عددا كبيرا من المؤرخين الذين تناولوا أحداثها، فتعددت الكتابات من كافة الأطياف وخاصة في القرن الأول من أحداثها، عندما اتحدت المصالح الكنسية

[1] فيليبوبوليس: هي مدينة حصينة، وتقع على قمة جبل هيموس الى الجهة الجنوبية الشرقية من صوفيا، وأطلق عليها هذا الاسم نسبة إلى مؤسس المدينة فيليب والد الإسكندر الأكبر، وتعرف اليوم بلوفديف. انظر:(فريد ،1896م ،ص225)

والعلمانية؛ ولذا ظهر تعدد الروايات التي اتفقت كثيرا، واختلفت وتعارضت أكثر، سواء مع تلك التي تعرف بالمصادر البيزنطية – السابق ذكرها- أو حتى فيما بينها سواء التي سجلت في الغرب الأوروبي أو التي دونت في المملكة الصليبية نفسها، أو الكتابات السريانية والأرمينية، بالإضافةإلى الكتابات العربية، وخاصة في أواخر النصف الأول من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي (عمران،2006م، 180)، وتأتي في طليعة تلك المصادر تلك التي دُوّنت في الشرق، مثل مؤلف وليم الصوري William of Tyre، الذي ولد بالقدس في عام 1130م/524هـ ، وانخرط في سلك الكنيسة، وكان مقربًا من ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية ببلاد الشام، وكان سفيرا لهم أكثر من مرة، وبالذات إلى القسطنطينية؛ ولذا يمكن أن ندرك مدى أهمية تاريخ وليم والمعروف بـ " تاريخ الأعمال التى جرت فى بلاد ما وراء البحر"(سعداوى،1957م،11)، وهناك أيضًا تلك المصادر التي دُوّنت في الغرب الأوروبي، خاصة ما يتعلّق بمَلَكي فرنسا وألمانيا المشاركينِ في أحداث الحملة الصليبية الثانية، مثلما كتبه الألماني أوتو أوف فرايزنج Otto of Fresing، الذي ولد حوالي عام 1110 م /503هـ وكانت عائلته تربطها صلة القرابة مع العرش الألماني، وقد خطط أوتو ليكون رجل دين، وفي عام 1137م /531هـ أصبح أوتو أسقف فريزنج، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته في عام 1158م/553هـ، ويعتبر مؤلفه "أعمال الإمبراطور فريدريك بربروسا"، من أهم المصادر التي أفادت الدراسة كثيرًا، وبالذات في تحديد العلاقة البيزنطية الألمانية فترة البحث، حيث قدم عرضًا تفصيليًا عن العلاقات الدبلوماسية التي كانت بين مانويل كومنين وكونراد الثالث (عمران،2006م،134)، والفرنسي أودو أوف دويلOdo of Deiul وهو الواعظ للقوات الفرنسية في الحملة الصليبية الثانية، وأولى اهتمامه بالكتابة عن أحداث الحملة في مؤلفه "حملة لويس السابع في الشرق"، وسرد تفاصيل أحداثها منذ بداية الدعوة لها بفرنسا في عام 1146م/540هـ، وقد اعتمدت الدراسة على ما قدمه المؤرخ عن العلاقات الفرنسية البيزنطية (عمران ،2006م،220)، وبالإضافة إلى ما سبق هناك العديد من المصادر الأخرى التي أفادت موضوع البحث في بعض جوانبه؛ التي وردت بها بعض الإشارات عن موضوع الدراسة مثل المصادر العربية والسريانية، مما تطلب عرض مختلف الآراء والروايات ومقارنتها ببعضها، بغرض الوصول إلى أسلم النتائج.

أولًا: العلاقات العدائية بين الإمبراطورية البِيزَنْطِيَّة والنورمان و أثرها في الصليبيين:

ازداد الخطر النورماني مع نهاية عهد الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني كومنين John II Komnenos (512-538هـ/1118-1143م)[2]؛ نظرًا إلى اتحاد جنوب إيطاليا وصقلية تحت حكم الملك النورماني روجر الثاني Roger II (4984-549هـ/1101-1154م) في عام524هـ/1130م، ويُعدّ هذا تحدّيًا علنيًا للحقوق البِيزَنْطِيَّة في جنوب إيطاليا؛ مما أدّى إلى قلق يوحنا الشديد إزاء تطلّعات روجر العالية، التي كان من أهمها: المطالبة بحكم إمارة أنطاكية الصليبية (مقامي،1989م، 59-64).

وبالرغم من فشل روجر في منع ريموند دي بواتييه Raymond de Poitiers (530-544هـ/1136-1149م) من الوصول إلى حكم أنطاكية عام 530هـ/1136م (الصوري، 1994م، ج3: 104)؛ لكن بات من الأهمية بمكان على يوحنا أن يبحث بهمة عن حليف قوي له بالغرب الأوربي؛ حتى يسانده في تنفيذ مثل هذه المهمة الصعبة، وقد وجد بغيته في الألمان؛ لأنهم يترقّبون بقلق أمر تنامي القوة النورمانية بجنوب إيطاليا (Wieruszowski,1962,2,10). وذكر المؤرخ أوتو أوف فرايزنج أن المصالح الصليبية تلاقت مع القوى الأوروبية حينذاك (Otto of Fresing, 1966, 111)، وأصبحت الأوضاع مناسبة لوفود سفراء بيزنطة إلى الإمبراطور الألماني كونواد الثالث (Conrad III) (532-547هـ/1138-1152م)، حيث أسفرت المفاوضات بين الجانبين عن تعزيز روابط التحالف بين إمبراطوريتي الشرق والغرب؛ من أجل مجابهة النورمان، كما أُتفق على أن يُقوّى هذا التقارب برباط المصاهرة، وذلك بزواج مانويل – ابن يوحنا- من الأميرة الألمانية برتا سالزباخ Bertha of Sulzbach وهي الأخت الشقيقة لزوجة كونراد (كيناموس،1997م،54؛ عبيد،1970م،169).

وفي الجانب الآخر، أوفد روجر الثاني سفارة إلى القسطنطينية؛ بهدف تفادي الأخطار الناجمة من هذا التحالف على مملكته، وحتى يعرض فتح باب المفاوضات؛ لمحو نقاط الخلاف مع الإمبراطور البيزنطي، بالإضافة إلى طلب زواج إحدى أميرات الأسرة الحاكمة من أحد أبنائه، وقد تزامنت هذه السفارة مع وفاة يوحنا الثاني في أبريل 1143م/538هـ (كيناموس،1997م،54). وتولي الإمبراطور الجديد مانويل الأول كومنين Manuel I Komnenos (538-576هـ/1143-1180م)، والموصوف بالأسطورة (Chalandon ،1912,172)، الذي رأى من جانبه أفضلية التحالف مع الألمان، مع استمرار سياسة العداء للنورمان.

وبالفعل عُقدت اتفاقية تحالف مع الألمان، والمصادقة على هذه المعاهدة بزواج الإمبراطور مانويل من الأميرة الألمانية برتا، التي عُرفت في البلاط البيزنطي بالاسم اليوناني إيريني Irene (عبد الوهاب،2010م،462). ولم يُدوّن أوتو أوف فرايزنج- وهو الوحيد بين المصادر المعاصرة الذي تناول أحداث هذه المفاوضات بشيء من التفصيل – شروط هذه الاتفاقية ونتائجها؛ إذ كان اهتمامه موجّهًا نحو الغرض من هذا الزواج، وهو عقد معاهدة

[2] الإمبراطور يوحنا الثاني كومنين: ولد في عام 1087م/479هـ، وتولى حكم الإمبراطورية البيزنطية بالفترة (1118م-1143م -511-537هـ)، وقد بذل جهودًا كبيرة حتى تتعافى الإمبراطورية من هزيمة معركة ملاذكرد، ونجح في العديد من الإنجازات العسكرية التي كانت ضد السلاجقة وفي البلقان، وقوى نفوذ السلطة البيزنطية بالإمارات الصليبية الناشئة في الشام، مثل الرها وإمارة أنطاكية، وكما تمكن من استعادة شيءٍ من سمعة الإمبراطورة البيزنطية، وجاء اختياره لابنه مانويل لخلافته بناء على نبوءة بأنه يجب على من يخلفه أن يبدأ اسمه بحرف الميم.انظر: NiketasChoniates,OCity of Byzantium,pp.22.

التحالف البيزنطي الألماني ضد النورمان (Otto of Fresing, 1966, 54). بمعنى أنها اتفاقية دفاعية ضد مملكة النورمان بجنوب إيطاليا، بالإضافة إلى أي قوى أخرى معادية لهم.

وفي رسالة كونراد الموجّهة إلى مانويل بخصوص مشروع زواجه من برتا، خاطبه كونراد: يجب أن يكون هذا الزواج بمنزلة العربون للتحالف الأبدي والصداقة الدائمة، وأنه سيكون صديقًا لأصدقائه وعدوًّا لأعدائه، وعند تعرُّض الإمبراطورية البِيزَنْطِيَّة لأي خطر؛ فإنه يتعهّد بتقديم المساعدة لهم، وذلك بإرسال الفِرق العسكرية، وإذا استدعى الأمر حضوره؛ فإنه سيأتي بكافة قوات الإمبراطورية (Otto of Freising , 1966, 58).

وفي الحقيقة؛ كان مانويل مؤمنًا بنتيجة هذه الصفقة الرابحة؛ لأن اتفاقه مع الملك الألماني سيدفع به الخطر النورماني الجاثم على الضفة المقابلة له من البحر الأدرياتيكي Adriatic؛ ومن ثمّ ستواتيه الفرصة لتتمركز قواته في الجهات الأخرى، ومن أهمها: استعادة سيادة بيزنطة على أنطاكية الصليبية. ونظير ذلك فلن يتناسى الملك النورماني روجر الإهانة التي لحقت به على يد مانويل؛ لتفضيله الألمان عليه (عبد الوهاب،2010م،463)، وهو الأمر الذي ستمتد آثاره فيما يُعرف بالحملة الصليبية الثانية (541هـ/1147م).

من جانب آخر كانت مملكة بيت المقدس الصليبية تمر بمرحلة من الضعف، وذلك إثر وفاة ملكها فولك أوف أنجو Fulk of Anjou (1131-1143م/ 526-539هـ) وانتقال الحكم إلى ابنه بلدوين الثالث Baldwin III تحت وصاية أمه الملكة ميلسند Melisendعام1143م/539هـ (الصوري،1994م، ج٣،٢٣٠) ، وأشار المؤرخ السرياني المجهول إلى أن القائد المسلم عماد الدين زنكي - أتابك الموصل وحلب - قد استغل أحوال الصليبيين المضطربة، وسار إلى بلاد الأراتقة متظاهرا برغبته في قتالهم؛ وذلك حتى يوهم الصليبيين بأنه لا رغبة لديه في قتالهم في تلك الفترة (Anonymous Syriaec Chronicle,1933,II,280)، وقد توجه بجيشه نحو إمارة الرها الصليبية، ومستغلًا لفرصة عدم وجود حاكمها الكونت جوسلين الثاني Jossclin || (525-538هـ/1131-1144م) بها، حيث فضل الإقامة في مدينة تل باشر[3] في تلك الفترة؛ وبالتالي استطاع عماد الدين زنكي استردادها في 23 ديسمبر 1144م/26 جمادى الآخر 539هـ[4].

ونتيجة لما سبق، قدم ريموند دي بواتييه إلى القسطنطينية متذللًا – نتيجة لتزايد الخطر الإسلامي على إمارته- حتى يُقدّم فروض الولاء والطاعة بناء على شروط مُخزية ومهينة، منها: موافقته على تنصيب بطريرك بيزنطي بكنيسة أنطاكية؛ وفي مقابل ذلك وعده مانويل بالمسير إلى بلاد الشام؛ لمساعدة الصليبيين الذين أصبحوا معزولين ومهددين بالخطر، بعد استرداد عماد الدين زنكي لإمارة الرها (كيناموس،1997م، 54؛ Choniates, 1984, 31).

ما لبثت أن بدأت تظهر ردود الأفعال عما حدث في الرها، حيث أرسلت الملكة ميلسند سفارة صليبية برئاسة هيو أسقف جبلة[5] Hugh bishop of Jabala حتى يبلغ الغرب الأوروبي وعلى رأسهم البابا إيوجينيوس الثالث Eugenius III (539-549هـ/1145-1153م) بأمر سقوط الرها، وعندها أتى رد فعل البابا سريعا إذ بدأ يدعو على الفور إلى تجهيز حملة صليبية جديدة لتتجة إلى الشرق(loyd,2001, 41).

في الوقت نفسه ، وبعيدا عما حدث في الرها وجدنا الإمبراطور البيزنطي مانويل يرسل حملة عسكرية نجحت في عودة إمارة أنطاكية إلى السيادة البِيزَنْطِيَّة مرة ثانية عام539هـ/1145م (رانسيمان،1968م،ج2:375 – 379). وفي الوقت نفسه نجح مانويل في شنّ حملتين على السلاجقة في آسيا الصغرى؛ لكنه لم تتحقق له الإفادة من هذا الانتصار؛ نظرًا إلى توالي الأنباء عن قدوم الحملة الصليبية الثانية؛ وبالتالي عاد سريعًا بقواته إلى القسطنطينية، بعد أن عقد هدنة مع السلطان السلجوقي مسعود الأول (509-551هـ/1116-1156م) لمدة اثني عشر عامًا (عمران،1984م،123-124) .

وهكذا أدّت هذه الأنباء إلى قبول مانويل عقد هذه الهدنة (كيناموس،1997م،80; Choniates, 1984,33) ، وذكر المؤرخ لويس برهيير Luois Brehier أن الأمور كانت تسير بصورة جيدة، وبناء على تخطيطه فيما يتعلّق بصراعه مع النورمان، وسيطرته على إمارة أنطاكية الصليبية مرة أخرى؛ لولا وصول أنباء استعدادات الغرب الأوروبي لإرسال الحملة الصليبية الثانية في ذلك الحين (Brehier, 1947, 229).

ثانيًا: موقف بيزنطة من الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية:

في حقيقة الأمر، أحدث استرداد المسلمين لإمارة الرها الصليبية صدمة قوية للغرب الأوربي؛ لأن ذلك يعني بداية تهديد الكيان الصليبي - الذي أسسه الصليبيون الأوائل في الشرق– بالانهيار ورجحان كفة ميزان القوى الإسلامية في بداية النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي/ السادس الهجري؛ وحينما سمع الإمبراطور مانويل بأمر الدعوة إلى الحملة الصليبية المرتقبة، فإنه عمد إلى مراسلة البابا يوجينوس الثالث Eugenius III في أغسطس 1146م/540هـ، مُعلنًا ترحيبه بالحملة واستعداده التام لمساعدة الصليبيين ودعمهم، خاصة إذا قدّموا مراسيم التكريم نفسها التي قدّمها أمراء الحملة الصليبية الأولى (488-492هـ/1095-1099م) للإمبراطور ألكسيوس الأول كومنين Alexios I Komnenos (473-512هـ/1081-1118م)،

[3] تل باشر: كورة واسعة وقلعة حصينة في شمالي حلب وبها أسواق عامرة ، وأهلها من النصارى. الحموي: (د.ت) ،ج 2، 451.

[4] بدأ عماد الدين زنكي بفرض الحصار على الرها في أواخر نوفمبر1144م/جمادى الآخر 539هـ، ثم راسل أهلها وطلب منهم تسليم المدينة له سلما، ولكنهم لم يذعنوا لمطلبه، وقد حاول حاكمها جوسلين الدخول للمدينة ومعه بعض قواته، ولكنهم فشلوا في ذلك، ومع اشتداد وطأة الحصار تمكنت القوات الإسلامية من اقتحام الرها بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوما، للمزيد من التفاصيل انظر: (ابن القلانسي،1908م،279؛ ابن الأثير،1966م، ج 11: 9- 99؛ الصوري،1994م، ج3: 23؛ الجنزوري، 2001م، ص300-310).

[5] جبلة: من أعمال حلب بالقرب من اللاذقية، ولها قلعة مشهورة على ساحل الشام. (الحموي (د.ت) ج 3، ص 31).

وأن يؤدوا إليه قَسَم الولاء نفسه الذي أقسمه الأمراء من قبل، مع أهمية تعهّدهم بتسليمه لكل الأراضي التي سيسيطرون عليها في آسيا الصغرى، التي تعود تبعيتها سابقًا إلى إمبراطوريته (عبد الحميد ،1998م، 103-105 ;1966,65 , Otto of Freising)

في الوقت نفسه ، أوفد مانويل سفارة بيزنطية إلى بلاط الملك الفرنسي لويس السابع LouisVII (531-575هـ/1137-1180م)، حاملة معها خطابًا من الإمبراطور للموضوع نفسه. وقد ذكر المؤرخ أدو أوف دويل أن الإمبراطور البيزنطي خاطب الملك الفرنسي بصيغة الصديق المقدّس والأخ (Deiul,1948,11). وتصادف أن تواجدت في الوقت نفسه وفي بلاط الملك الفرنسي أيضا، سفارة من قبل ملك النورمان روجر الثاني، حملت معها للملك الفرنسي ود وترحاب الملك النورماني للملك الفرنسي (عبيد، 1970م، 185-186)، حيث قدّم السفراء النورمان للملك الفرنسي تأكيدًا من ملكهم روجر التزامه ومملكته بالدعم الكامل للحملة الصليبية المنتظرة، وذلك بتوفير كل ما يحتاجونه من وسائل النقل والعتاد والمؤن؛ بل وأنه على أُهبة الاستعداد هو أو ابنه لحمل الصليب ومرافقة الحملة في مهمتها (Deiul,1948,11).ليعقد الملك الفرنسي مؤتمرًا في مدينة إيتامب Étampes بفرنسا في المدة من 16-18 فبراير 1147م/7-9 رمضان 541هـ،حضره كل من أفراد السفارتين - النورمانية والبيزنطية- ليطرح كل من الجانبين عروضهما لدعم الحملة. كما حضر هذا المؤتمر سفراء الإمبراطور الألماني كونراد الثالث ConradIII (532-546هـ/1138-1152م)؛ الذي سبق وأعلن مشاركته في الحملة المرتقبة (كيناموس،1997م،81:36 .Choniates, 1984, p).

الجدير بالذكر، أن الملك الصقلي روجر- كان يتوقع أنه عند قبول الملك الفرنسي لعرضه- أن يتحرّك في ساحة السياسة الأوربية، بوصفه حليفًا لفرنسا؛ وبهذا سيتمكّن من التأثير على خط مسار الحملة ونتيجتها النهائية بما يتوافق مع مصلحة النورمان، خاصة ما يخدم تطلّعات روجر في السيطرة على إمارة أنطاكية الصليبية (Makk ,1989, 42)؛ لذا شعر الإمبراطور البيزنطي بالقلق في حالة نجاح روجر في تحقيق هدفه؛ لأن ذلك سيتيح له فرصة التحكّم في الحملة وتوجيهها إلى الهجوم على القسطنطينية ذاتها (زيتون،1980م،173-174).

أما عن الإمبراطور مانويل كومنيين فقد أدرك أن مشاركة الملك الفرنسي في هذه الحملة يعد تهديدًا صريحًا وعلى نحو مباشر للإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة، ولا غرو في ذلك؛ لأنه يتمتّع بعلاقات قوية مع صليبي الشام تفوق كل ملوك أوروبا. ويرى المؤرخ ماجديلينوMagdalino أن قيام تحالف فرنسي صليبي؛ سيفتح المجال بل والفرصة لمهاجمة القسطنطينية، ومما زاد الأمر سوءًا ظهور بوادر تحالف فرنسي مع النورمان أبرز أعداء الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة في تلك الفترة(Magdalino, 2002, 50).

وبالرغم من مخاوف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة السابقة إزاء المشاركة الفرنسية؛ لكن مانويل كان حريصًا على عدم نجاح سفراء روجر في الحصول على موافقة الملك الفرنسي على عرضه بنقل القوات الصليبية على متن أسطوله البحري؛ بل أصبح عبور هذه القوات عبر أراضي بيزنطة أقل خطرًا بالنسبة له وللإمبراطورية من نقلهم بواسطة الأسطول النورماني؛ ولذا بذل الجهود الحثيثة في سبيل إقناع الملك لويس بفوائد التحالف القادم معه، وحرص على تأمين جانبه بالطريقة نفسها التي اتبعها الإمبراطور ألكسيوس الأول مع صليبيي الحملة الأولى، كما أوفد سفراءه إلى الملك الفرنسي لويس السابع؛ لإبلاغه بالمطالب نفسها، كما أشار بذلك المؤرخ أودو أوف دويل (Deiul,1948,14). وعلى الرغم من أن العروض التي حملتها سفارة روجر كانت أكثر سخاء مقارنة بعروض سفراء مانويل؛ لكن ملك فرنسا رأى أن من الأفضل له قبول عرض مانويل، ورفض عرض روجر الثاني (عمران، 1984م، 137-139).

وقد وافق لويس على عرض السفارة البِيزِنْطِيَّة؛ بالرغم من طلبهم منه أن يؤدي يمين الولاء إلى الإمبراطور البيزنطي، وانتهز سفراء روجر هذا الطلب، وأخذوا يثيرون الريبة والشك في صدق نوايا مانويل؛ لكن سفراء الملك الألماني كونراد الثالث دعّموا سفراء الإمبراطور البيزنطي مانويل، وارتابوا من موقف النورمان (عبيد،1970م،187).

وتشير إحدى الدراسات إلى أن رفض لويس للعرض النورماني لم يكن مبنيًّا على كراهيته للنورمان وميله إلى البيزنطيين؛ بل كان بسبب تعارض المصالح الفرنسية مع النورمان، إضافة إلى العداء القائم بين النورمان وبيزنطة. وعلاوة على ذلك، فقد أدرك أن أطماع النورمان في الشرق الصليبي كانت مصدر خوف وقلق الأمراء الصليبيين منذ زمن الحملة الصليبية الأولى، خاصة بعد مطالبة روجر بحقّه في حكم إمارة أنطاكية، التي يحكمها آنذاك الأمير ريموند دي بواتييه، وهو عم الملكة إليانور Eleanor زوجة الملك الفرنسي (Berry,1955, 463). أيضا أدرك لويس أنه إذا اختار التحالف مع النورمان – أعداء كونراد والبابوية- فإن الحملة المنتظرة لن تُحقّق أي نتائج مثمرة للصليبيين (Rowe,1959,123).

ويمكن عدّ نجاح مانويل في تفادي إمبراطوريته لخطر قيام التحالف النورماني الفرنسي دليلًا على كفاءته في الجانب الدبلوماسي، ومع هذا فإن المؤرخ أودو أوف دويل نقل عن قول السفراء النورمان أن الفرنسيين سيندمون سريعًا على رفضهم لعرض ملكهم روجر، خاصة بعد أن يُجرّبوا مرارة الخيانة البِيزِنْطِيَّة (Deiul,1948,11). ونتيجة لرفض الملك الفرنسي عرض سفارة روجر؛ فإنه ازداد سخط الملك النورماني وحقده على الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة، وأخذ يترقّب الفرصة المناسبة للانتقام من الإمبراطور مانويل؛ لأنه هو الذي أضاع عليه فرصة المشاركة في الحملة الصليبية الثانية (عمران،1984م،140).

وفيما يتعلّق بموقف الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة من الملك الألماني كونراد الثالث، الذي أعلن رغبته في المشاركة بالحملة؛ لذا اضطربت مخططات

مانويل. وعندما بدأ يستعد لاستقبال الحملة وهو لا يزال مترددًا في أمر المشاركة فيها؛ وفدت في الوقت نفسه سفارة الإمبراطور البيزنطي إلى كونراد الثالث (Venning, 2006, 480)، التي يبدو أنه أرسلها للتحريض لشن حملة ضد روجر؛ وبذا سينشغل عن التفكير في مهاجمة إمبراطوريته في فترة انشغاله بالحملة الصليبية الثانية، هذا إضافة إلى وجود هدف آخر لمانويل - قد يكون الهدف الأساسي- وهو محاولة مانويل صرف نظر كونراد عن التفكير في الاشتراك بالحملة الصليبية الثانية، وشغله بأمر القيام بحملة على النورمان؛ لأنه يعلم الضرر الذي سيقع عليه عند مشاركة كونراد في تلك الحملة، وتركه للغرب، الذي يُمثّل الدرع الحامي له من الهجمات النورمانية (Rowe,1959,126).

وقد أبلغ كونراد سفراء مانويل بصدق عزمه على المسير إلى الشرق، والمشاركة في الحملة الصليبية الثانية (Venning, 2006, 480)، وكان هذا القرار مزعجًا لبيزنطة، وبدأ كونراد في رحلة المسير إلى بلاد الشام، وهذا الأمر أحبط خطورة الاتفاق البيزنطي الألماني على النورمان؛ وبذا أضحت بيزنطة جبهة وحيدة في مواجهة القوة النورمانية (Rowe,1959,126؛Ostrogorsky ,1968, 339; Vasiliv ,1952, 419-420).

والأدهى من ذلك أن عبور القوات الألمانية للأراضي البيزنطية؛ سيؤدي إلى حدوث العديد من المشاكل بين الجانبين، وعند فشل كونراد؛ فإن المسؤولية ستقع على كاهل الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة وحدها؛ وهذا ما سيؤدي إلى تمزيق عُرى الاتفاق البيزنطي الألماني على نحو مؤثر (Chalandon , 1913, 262 ; Lilie , 1993 , 402).

وإزاء ما سبق، ندرك أن الحملة الصليبية الثانية بقائديها - الفرنسي والألماني- شكّلا خطرًا وعبئًا كبيرًا على بيزنطة، وكانت لدى مانويل من الأسباب والمبررات الكافية حتى يرتاب في نواياهم؛ ولذا لجأ إلى اتخاذ العديد من التدابير العسكرية والأمنية؛ للمحافظة على سلامة إمبراطوريته، وتمسّك بشدة بأخذ التعهّدات والضمانات اللازمة من مَلِكَي الحملة للمرور السلمي عبر أراضيه، وإعادة الأراضي التي سيستولي عليها الصليبيون في بلاد آسيا الصغرى؛ بحكم تبعيتها السابقة لبيزنطة، وساورت الشكوك المواطنين البيزنطيين تجاه تعاملهم مع الصليبيين، فانتهجوا سياسة الحيطة والحذر منهم؛ ولذا أغلقوا أبواب قراهم ومدنهم في وجوههم (Choniates, 1984,39).

وفي نهاية المطاف - وبحسب ما ذكره كيناموس- أضحى مانويل في غاية من القلق والحيرة، ووجب عليه إعادة ترتيب أولويات حساباته وتجهيزاته من أجل استقبال قوات الحملة الصليبية الثانية، وتأتي موافقته على الصلح مع السلاجقة بوصفها أولى تلك التجهيزات؛ لخوفه من تداعي كل الأطراف عليه في آن واحد (كيناموس،1997م،80).

ثالثًا: موقف بيزنطة من القوات الألمانية في ضوء المصادر التاريخية:

كانت قوات الملك كونراد أولى القوات التي تحرّكت، وعندما وصلت إلى هنغاريا Hingary، استقبلها ملكها جيزا الثاني Gezall (535-557هـ/ 1141-1162م) بكل حفاوة وترحيب، وفي مايو 1147م/541هـ، استقبل كونراد الثالث أعضاء سفارة مانويل، الذين حملوا معهم رسالة من الإمبراطور إلى كونراد، حيث سأله فيها عن حقيقة موقفه ونواياه، وهل جاء صديقًا مسالمًا، وإن كان حقًّا هو كذلك؛ فعليه أن يؤكد ذلك بأداء يمين الولاء للإمبراطور البيزنطي هو ومن يرافقه من الكونتات الآخرين؛ حتى يأذن لهم الإمبراطور بالمرور من أراضيه، وفي الحال رحّب كونراد ورجاله بمطالب الإمبراطور، وعادت السفارة إلى سيدهم وهم يحملون ردّ كونراد بالموافقة في أبريل من عام 1147م/ 541هـ (كيناموس،1997م،81)[6].

واتفق نيكيتاس خونياتسNiketas Choniates وأوتو أوف فرايزينج Otto of Fresing على أن تلك السفارة جاءت ردًّا على سفارة كونراد، التي أرسلها إلى الإمبراطور مانويل، طالبًا منه الإذن والسماح له بعبور أراضيه، مع تأمين كافة ما يحتاجونه من مواد غذائية لهم ولدوابهم خلال عبورهم إلى آسيا الصغرى؛ لمحاربة السلاجقة (Otto of Fresing,1966,74؛ Choniates , 1984, 36). وفي الحال أصدر مانويل أوامره إلى جميع أراضي الإمبراطورية بتأمين كل سُبل الراحة والإمدادات والأطعمة وكافة ما يحتاجه الجيش الألماني عند مروره بأراضي الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة (Choniates , 1984, 36).

وذكر كيناموس أن هذا ما حدث بالفعل في عدة أماكن بالأراضي البِيزِنْطِيَّة، وفي بداية الأمر سارت الأمور على نحو جيد، وبناء على الاتفاق السابق بين الطرفين (كيناموس،1997م، 81)؛ لكن هذا الوضع لم يستمر طويلًا؛ إذ سرعان ما حدثت مناوشات بين الجيشين الألماني والبيزنطي؛ ولذا أرسل مانويل رجاله مُذكرًا إياهم باتفاقهم السابق معه، وطلب منهم اتباع طريق معين؛ لكن الألمان أصرّوا على الاستمرار في طريقهم إلى القسطنطينية (كيناموس،1997م،86). وظهرت هذه الاعتداءات والمنازعات من جانب الجيش الألماني في مدينتي فيليبوبوليس Philippoplis، وأدرنة Adrianople، خاصة في المدينة الأولى، التي أسهب نيكيتاس الحديث فيها عن وصف المذابح وأعمال التدمير التي قام بها الألمان عندما أغلقت المدينة أبوابها في وجوههم (Choniates, 1984, 39).

وسجّل أودو أوف دويل وصفًا للتصرّفات السيئة التي قام بها جنود كونراد التي ألحقت بهم الأذى، عندما قدموا للعبور من هذه الأراضي وهم في طريقهم إلى القسطنطينية (Deiul,1948,42). وعندما وصل كونراد إلى مدينة القسطنطينية في العاشر من سبتمبر 1147م/541هـ، أكرم مانويل وفادته، وأسكنه في قصر فخم (كيناموس،1997م،96)؛ لكن حِدّة العداء بينهما ظلت مستمرة، حيث تبادل الطرفان الاتهامات.

---

[6] سفراء مانويل كانا ديمتروس ماكريمبولايتس Demetrioes Makrembolites وإسكندر كونت جرافنيا of Gravina Alxander. (كيناموس،1997م،81).

واللافت للنظر ما يتعلّق بخط مسيرة الجيش الألماني في داخل أراضي بيزنطة، حيث إن تلك المسيرة ليس لها صلة بشروط أي تحالف، بل إن نيكتاس خونياتس أورد وصفها بالنسبة للبيزنطيين بأنها بمنزلة المعجزة الأليمة التي هبطت من كبد السماء، وكان شعور القلق والمخاوف يساور مانويل تجاه كونراد، حيث خشي أن يكون بمنزلة الذئب المُتستّر بقناع الحَمَل، أو كالأسد الذي أتى في صورة الحمار (Choniates , 1984, 39). وصرّح أودو أوف دويل عن مدى غضبه الشديد من تصرّفات الجيش الألماني، الذي قدم قبلهم ودمّر وأحرق كل ما وجده في طريقه؛ وبالتالي فإن الجيش الفرنسي الذي عبر الطريق نفسه فيما بعد لم يجد ما يقتات به أحيانًا (Deiul,1948,43).

ويبدو أن مخاوف مانويل من اشتراك كونراد في الحملة الصليبية الثانية بدأت تظهر بالفعل، وتتحوّل الصداقة إلى عداء، وحسبما يشير كيناموس Kinnamos أن كونراد أنذر مانويل بالعودة في العام القادم للهجوم على مدينة القسطنطينية نفسها، ولم تتوقف تلك المناوشات بين الطرفين إلا عندما تدخّلت الإمبراطورة برثا زوجة مانويل؛ للصلح بينهما، حيث طلبت من مانويل أن ينقل كونراد إلى آسيا الصغرى (كيناموس،1997م،96).

ولم تكن مفاوضات برثا على المستوى المطلوب؛ لأنه لم تعد الأمور إلى نِصابها الصحيح على نحو كامل، وكان السبب الرئيس لنجاح المفاوضات للطرفين؛ قرب قدوم الملك الفرنسي لويس السابع، الذي لم يكن على وئام مع كونراد في ذلك الحين (عبيد،1970م،191)؛ ولذا فضَّل عدم البقاء حتى لا يقابله، كما أن مانويل قد توجّس خيفة من وجود القوتين في آن واحد داخل أراضي الإمبراطورية؛ لذا قرر تعجيل نقل القوات الألمانية (عبيد،1970م،192).

وحاول مانويل تقوية علاقته بالألمان قبيل مغادرتهم لبيزنطة، فعرض على كونراد أن تبقى بعض القوات الألمانية في القسطنطينية؛ نظير ما يدعم به مانويل من القوات البِيزَنْطِيَّة لصفوف الحملة؛ ولكن كونراد قابل هذا العرض بالرفض (Choniates , 1984, 87). وأضاف المؤرخ فازيليف Vasiliev أن مانويل كان يعمل على أن يتولى قيادة الحملة (Vasiliev ,1952,71) ومن المرجح أن مانويل هدف من ضمّ بعض قوات الإمبراطورية إلى قوات الحملة أن ينسب إلى الإمبراطورية البِيزَنْطِيَّة شيئًا من النجاح المتوقّع لتلك الحملة؛ نظرًا إلى أعدادها الهائلة، وحتى تستمر دعوى السيادة البِيزَنْطِيَّة على أنطاكية قائمة أيضا، كما توقّع كونراد أن تنجح القوت الألمانية بمفردها، وبدون الحاجة إلى مساندة القوات الفرنسية، وهذا الذي دفعه إلى سرعة المسير إلى بلاد الشام قبل أن يلحقه لويس بقواته؛ ولذا رفض كونراد العرض البيزنطي؛ حتى لاتشاركه قيادة أخرى في ذلك النجاح، بل ينسب إليه بمفرده نجاح الحملة (Vasiliev ,1952,72).

على أية حال، استعد كونراد للمسير إلى بلاد الشام، وطلب من مانويل أن يمدّه ببعض المرشدين ليرافقوه في الطريق عبر الأناضولAnatolia، فأمدّه مانويل بالمرشدين، ونصح الإمبراطور الملك كونراد بأن يتخذ الطريق الساحلي الغربي من آسيا الصغرى، وبعدها يلزم الساحل الجنوبي، وكل هذه الطرق تقع ضمن دائرة نفوذ الإمبراطورية البِيزَنْطِيَّة، كما أشار إليه بأهمية إعادة كل الجند الصليبيين الفائضين عن حاجته إلى بلادهم؛ حتى لا يربكوا صفوف الحملة، ولا يُشكّلوا عبئًا عليها في أثناء المسير (Deiul,1948, 89).

وذكر المؤرخ الفرنسي أودو أوف دويل أن كونراد لم يعمل بنصائح الإمبراطور المهمة؛ بل اصطحب كل القوات، واختار أقصر الطرق الموصلة إلى بلاد الشام (Deiul,1948,91). وهذا الطريق يستغرق مدة تُقدّر بحدود ثلاثة أسابيع، ويقع قريبًا من مركز القوات السلجوقية؛ ولكنه بهذا الاختيار قد حكم بنفسه على فشل الحملة (عمران،1984م، 144). وأمدّ كونراد جيشه بالمؤن والتجهيزات اللازمة لمدة ثمانية أيام فقط، وأمر قواته بالمسير وكانت رحلة مرهقة وشاقة؛ ما لبث الضيق أن لحق بهم في اليوم الثالث؛ بسبب الطرق الوعرة عبر الممرات والجبال (كيناموس،1997م،91).

وفي هذه المرحلة سجّل المؤرخ البيزنطي نيكتاس أن هناك من قال: إن الإمبراطور أمر أن يُخلط ما يباع من الدقيق مع الجير، كما أن المواطنين البيزنطيين تعاملوا مع الألمان بعملة أقل وزنًا من الوزن المعتاد، إلى جانب أن الإمبراطور قد أثار ضغينة السلاجقة ضد القوات الألمانية، وطلب من المرشدين تضليل الحملة ومن ثمّ الهروب. وأضاف المؤرخ نفسه أنه لا يعلم مدى صحة ذلك (Choniates, 1984, 88).

وذكر المؤرخ الفرنسي أودو أوف دويل أن الصليبيين الألمان اكتشفوا أن الدليل البيزنطي هرب عند مطلع الفجر، وفجأة اتضح لهم أن السلاجقة صعدوا على قمم الجبال المحيطة بهم، وأن الألمان قد حاق بهم اليأس؛ بسبب هروب الدليل البيزنطي قبل أن يُعاقب على جريمته (Deiul,1948, 94).

أما وليم الصوري فروى أن المرشدين قد اختاروا السير في الطريق الذي جعل الحملة فيه تقع تحت رحمة السلاجقة، الذين أحاطوا بالجند الألمان من كل الجوانب، ويعود سبب ذلك إلى خيانة البيزنطيين، واتفق معه في ذلك أودو أوف دويل (Deiul,1948, 95; الصوري،1994، ج3: 274).

وهكذا اضطرب الجند الألمان، وحاولوا الاحتماء بشِعاب الجبال؛ ولكن السلاجقة أحاطوا بهم وأخذوا يمطرونهم بوابل من السِّهام؛ فحلّت الخسائر الفادحة بصفوف الألمان، وكانت هذه المعركة مذبحة؛ إذ قُتل فيها نحو تسعة أعشار الجيش الألماني، كما أصيب الملك كونراد بالجِراح، الذي حاول أن يعيد ترتيب فلول قواته؛ ولكنه فشل في ذلك؛ وبات مجبرًا على الانسحاب السريع إلى نيقية، واتسم هذا الانسحاب بالفوضى الشديدة؛ لذا استغله السلاجقة في إنزال المزيد من الخسائر بالقوات الألمانية الهاربة، وبهذه النكبة القاصمة يمكن الاستناد إلي قول أودو أوف دويل: إن القوات الألمانية الصليبية قد انتهى أمرها، وكانت رحلته عبر آسيا الصغرى كارثة عليه (Deiul,1948, 96)؛ مما سيكون له أسوأ الأثر في نتائج الحملة بأكملها فيما بعد.

وردًّا على الروايات التي اتهمت بيزنطة بالخيانة، ترى الباحثة أنه يمكن الفصل في هذه المسألة بالاطلاع على الخطاب الذي أرسله الملك كونراد إلى ويبالدWeibald أسقف كورفري، وذكر فيه أنه هو الذي اختار هذا الطريق بنفسه؛ حتى يصل إلى بلاد الشام بأقصى بسرعة ممكنة، وأن الإمبراطور البيزنطي قد زوّده بالمؤن الكافية لقواته، كما أنه لم يولِ قضية هروب المُرشدين أهمية تُذكر، ولم يصفهم بالخونة، ولم يرَ علاقة تربط بين ظهور السلاجقة وهروب المرشدين، ويمكن القول: إنه عندما نفذت مؤن القوات الصليبية الألمانية؛ فقد قطع السلاجقة الطريق عليهم؛ ومن ثمَّ شنّوا هجومًا على الصليبيين، وعندما مات الصليبيون جوعًا في البلاد التي يجهلون مسالكها؛ فإنهم وجّهوا إلى المرشدين تهمة الخيانة؛ ولذا لم يستطع المرشدون الانتظار؛ خوفًا من تهديدهم، فلاذوا بالفرار، ووقعوا في قبضة أيدي السلاجقة (عمران،1984م، 146).

رابعًا: موقف بيزنطة من القوات الفرنسية و أثره في مشكلة إمارة أنطاكية الصليبية:

جاءت مسيرة القوات الفرنسية على النقيض تمامًا من القوات الألمانية، حيث اتسمت بطابع الهدوء، وعلى الرغم من أن أودو أوف دويل كان من أهم أعضاء الحزب الفرنسي المعادي لبيزنطة، وكان متأثرًا في روايته بما آلت إليه الحملة في النهاية، وألقى بالمسؤولية على كاهل بيزنطة (Deiul,1948,28)؛ لكن يتضح في المصادر البِيزِنْطِيَّة - سواء عند يوحنا كيناموس أو نيكيتاس خونياتس- ما يُشير إلى حدوث توتر في العلاقات بين لويس السابع ومانويل، مع عدم استبعاد صدق روايته بصورة تامة.

وفي الجانب الآخر، حرص مانويل على أخذ كافة التعهّدات من الملك الفرنسي لويس السابع، بخصوص سلامة أراضيه، وإعادة كل الأراضي التي سيستولون عليها في آسيا الصغرى، التي تعود في أصل تبعيتها إلى بيزنطة. ومن جانبه رأى لويس أن المطلب الأول حق طبيعي ومشروع لمانويل، وعارض المطلب الثاني، ولجأ إلى أسلوب المماطلة والتسويف مع سفراء بيزنطة الذين استقبلوه على مشارف حدود الإمبراطورية، ووعدهم بمناقشة ذلك المطلب عند مقابلته للإمبراطور البيزنطي (Deiul,1948, 29).

ومن الواضح أن لويس السابع كان قاصدًا تأجيل مناقشة هذا المطلب إلى حين وصول قواته إلى القسطنطينية؛ وهذا مما جعل مانويل في موقف صعب، حتى يضطر إلى التنازل عن مناقشته؛ ولذا لم يناقش مانويل هذا المطلب مرة ثانية، حتى عبرت القوات الفرنسية إلى آسيا الصغرى، وعندها ضغط على لويس وأمرائه؛ حتى رضخوا لمطالبه، خاصةً عندما أصبح لويس يعتمد على المساعدات البِيزِنْطِيَّة، وصار غير قادر على استخدام الضغط العسكري على الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة (Deiul,1948, 30).

ويبدو الأمر أكثر خطورة من وجهة نظر الإمبراطور البيزنطي، حيث أثار الشكوك والريبة تجاه نوايا الصليبيين الفرنسيين، والرابطة القوية التي تجمع بين الملك الفرنسي والملك النورماني روجر الثاني. وحتى مع رفض الملك الفرنسي للعرض النورماني الخاص بنقل القوات الفرنسية على متن سفن الأسطول النورماني، إذ يقول أودو أوف دويل: إن مجرد المفاوضات بين الطرفين كانت وسيلة لإثارة القلق داخل الدوائر البِيزِنْطِيَّة الحاكمة، وبالذات أن أعدادًا كبيرة من بارونات الجيش الفرنسي ينتمون إلى الحزب المعادي لبيزنطة؛ ولذا أيّدوا بشدة عرض التحالف مع الملك النورماني؛ حتى إن كثيرًا من أفراد الجيش الفرنسي ساروا إلى أبوليا (Apulia) النورمانية، ومنها رحلوا إلى الشرق (Deiul,1948, 33).

ما لبثت وأن جاءت تصرّفات الملك الفرنسي وقواته مؤكدة صحة الشكوك البِيزِنْطِيَّة، فمنذ الوهلة الأولى لدخول الملك الفرنسي إلى الأراضي البِيزِنْطِيَّة وهو متخذ للموقف المعارض لكل نصيحة أو عَرْض من جانب الإمبراطور البيزنطي، بالإضافة إلى مماطلته في المطلب البيزنطي الخاص بضرورة إعادة كل الأراضي التي قد استولى عليها السلاجقة في آسيا الصغرى، ورفض اقتراح مانويل بخصوص عبور الدردنيل بدلًا من البسفور، وهو الاقتراح نفسه الذي سبق أن رفضه كونراد، وأصرّ على المسير إلى القسطنطينية، وكأنه يضمر في أعماق نفسه أمرًا مهيبًا على حدِّ قول المؤرخ أودو أوف دويل بأنه ساد شعور قوي بين أفراد الجيش الفرنسي، وهو عدم عدّ البيزنطيين في قائمة المسيحيين الحقيقيين؛ بل يجب قتلهم دون شعور بتأنيب الضمير (Deiul,1948, 72)، وانفرد بالقول: إن هناك مجموعة من الأمراء الفرنسيين المشاركين في الحملة شجّعوا ملكهم على مهاجمة الأراضي البِيزِنْطِيَّة الخصبة والثرية، والسيطرة على قلاعها ومدنها، ومراسلة ملك النورمان - الذي كان مشغولًا بالهجوم القوي على السواحل الغربية لبيزنطة- للإفادة من أسطوله في مهاجمة القسطنطينية (Deiul,1948, 73).

وعندما وصلوا أمام أسوار العاصمة البِيزِنْطِيَّة، أصرّ هؤلاء الأمراء على الملك لويس بأهمية الاستيلاء على القسطنطينية، بحجة أنها مدينة مسيحية بالاسم فقط، وأن إمبراطورها هاجم قبل سنوات قليلة أمير أنطاكية الصليبي - يقصدون بذلك هجوم يوحنا الثاني على أنطاكية عام 531هـ/1137م– وأن حاكمها الحالي مانويل يعدُّ وريثًا للجريمة المُخزية، وما يزال محتفظًا لنفسه بالأملاك التي سبق أن استولى عليها والده يوحنا الثاني بالقوة؛ بل وينظر بشراهة شديدة إلى الأراضي التي كان يتطلع والده إلى السيطرة عليها، ونجح في انتزاع يمين الولاء من أميرها، وأقام على المدينة بطريرك من قِبله (Deiul,1948,73).

ومن المرجح أن مانويل كان على علم بالمكائد التي تُحاك من حوله من قِبل المعادين له في المعسكر الفرنسي؛ لذا بذل جهده في كسب ودّ لويس وصداقته، أو على أقل تقدير السيطرة على الموقف؛ حتى لا يستجيب الملك الفرنسي لمُقترحاتهم؛ ولهذا استقبله مانويل في أثناء زيارته للقسطنطينية بكل مراسم الحفاوة والتكريم، ثم أخذه في جولة بشوارع المدينة؛ لمشاهدة آثارها المقدسة ومزاراتها الدينية (Jeffreys, 1980, 467-469).

وقد احتار أودو أوف دويل في سبب حفاوة استقبال الإمبراطور البيزنطي للملك الفرنسي، وأشار إلى صعوبة فهم البيزنطيين وتصرّفاتهم، فلا يفهمهم إلا الشخص الذي عاشرهم، أو من كان ذا فطنة؛ حتى يتنبأ بتصرّفاتهم (Deiul,1948,78). كما أوفد مانويل سفارته لمقابلة الملك لويس السابع، وأخذ قسم الولاء منه، مثلما فعل مع كونراد الثالث قبله، ثم التقت سفارة مانويل مع الملك لويس، وأقسم لهم أنه سيعيد لهم الأراضي التي قد استولى عليها السلاجقة التي تعود تبعيتها من قبل لبيزنطة (كيناموس،1997م،92).

حدث وأن أرسل الإمبراطور مانويل رسله إلى الملك لويس حتى يُغيّر طريقه إلى طريق سهل وسريع؛ ولكن لويس تمسّك بالسير في الطريق نفسه الذي سار فيه كونراد الثالث من قبل إلى القسطنطينية (عبيد،1970م،191). كان مرور لويس السابع عبر الأراضي البِيزَنْطِيَّة أفضل من عبور الملك الألماني كونراد الثالث، كما رحبّ لويس بسفارة مانويل واعدًا إياهم بالمحافظة على العهود، وأوفد رسله إلى مانويل تحمل له حرصه الشديد على المحافظة على روابط الصداقة بين الجانبين، وعلى الرغم من محاولة بعض أمراء لويس تأليبه ضد الإمبراطور البيزنطي لكنهم فشلوا في هذا الأمر (عبيد،1970م،199)؛ وبوصول الملك لويس السابع وقواته إلى القسطنطينية استقبله الإمبراطور مانويل بترحاب وذلك في 4 أكتوبر 1147م/541هـ (كيناموس،1997م،93).

وفي أثناء استعداد القوات الفرنسية للتوجه نحو الشرق؛ علمت بأخبار الكارثة التي مُنيت بها القوات الألمانية، وذلك بسبب وصول فردريك أف سوابيا Frederick of Suabia - ابن عم الملك كونراد، الذي صحبه في الحملة- وطلب أن يُقابل الملك لويس، حتى يُوافيه بالخبر وذلك في بداية شهر نوفمبر 1147م/541هـ (وليم الصوري،1994م، ج3: 279)، وأسرع لويس بالمسير إلى كونراد؛ لمساعدته بناء على طلبه، واتفق الملكان خلال المقابلة أن يسلك الطريق الساحلي، الذي سبق أن اقترحه مانويل على كونراد قبل وقوع الكارثة، وسار لويس بقواته مؤملًا أن يلحق به كونراد بعد أن ينظّم قواته مرة أخرى (Deiul,1948,137)، وبالفعل لحقت القوات الألمانية بالقوات الفرنسية. ويُلاحظ أن القوات الفرنسية ليست على وئام كامل مع القوات الألمانية، التي تعرّضت إلى السخرية من قِبل قوات الملك لويس، وفقًا لما ذكره كيناموس (كيناموس،1997م،95).

على أية حال، لم يستطع الملك كونراد أن يتحمّل المزيد من الأعباء؛ وصعب عليه مواصلة الرحلة، ولما علم مانويل بأن الملك كونراد مريضٌ، دعاه إلى الحضور للقسطنطينية، واهتم شخصيًّا بعلاجه (عمران،1984م،155). بينما ظل لويس مترقبًا لعودة الملك الألماني، ولما طال أمد غيابه؛ قرر أن يواصل الرحلة، وقد وصله تبليغ من مانويل عن تواجد بعض قوات السلاجقة بالقرب منه، ونصحه بالسير بمحاذاة الساحل، وعدم الاشتباك مع قوات السلاجقة قدر المستطاع في تلك المرحلة (Deiul,1948,103-104).

ونتيجة للنصائح الإمبراطورية، فقد طلب لويس من قواته أن تبقى قريبة من بعضها بعضًا، وتكون في حالة دائمة من اليقظة والتأهُّب، وسارت القوات حتى وصلت إلى غربي إمارة أنطاكية في أوائل يناير 1148م/542هـ؛ وهنا ظهرت القوات السلجوقية وقاموا بمناوشات فاشلة مع القوات الصليبية، وقد فرض الوضع على الملك لويس أن يواصل المسيرة؛ بالرغم من قلة الأقوات، إلى جانب وعورة الطريق، مع ظروف الشتاء القارس، إضافة إلى رؤية القوات الفرنسية لأشلاء جثث الجنود الألمان وهي مبعثرة على الطريق؛ وهذا المنظر رسم لهم صورة لما سيؤولون إليه، وفي وسط هذه الظروف الحالكة؛ انقضّت القوات السلجوقية على الفرنسيين، وأمطروهم بالسِّهام المتوالية؛ ومن ثمّ فقد عمّت الفوضى في الصفوف الصليبية، وأخذت خيولهم المصابة في التهاوي إلى سفوح الجبال، وكانت تحمل معها كل ما يعترض طريقها من المشاة والخيول الأخرى والأمتعة، وهذا ما شجّع السلاجقة على إنزال المزيد من الخسائر بالقوات الصليبية. وقد تحدث المؤرخ أودو أوف ديل بإسهاب عن وصف أحداث هذه المعارك (Deiul,1948,115-120).

وقد جافى النوم مضاجع الفرنسيين في تلك الليلة، وفي الصباح الباكر أخذ الملك لويس يُعيد تنظيم صفوف قواته من جديد؛ لمواصلة السير (Deiul,1948,125). وتمكّن القادة من السيطرة على مشكلة نقص المؤن، عن طريق ذبح الخيول العاجزة عن السير، كما أحرقوا وتركوا بعضًا من أمتعتهم، وتعرّضوا في أثناء مسيرتهم لغارات خفيفة على نحو يومي من قبل القوات السلجوقية، وقد وصلوا إلى مدينة أضاليا في العشرين من يناير 1148م/542هـ، وكان حاكمها لاندولف Landolph في انتظارهم، وهناك تمكّن الصليبيون من الحصول على كافة المؤن التي يحتاجونها بأسعار باهظة؛ وبالتالي اضطروا إلى بيع جزءًا من دوابهم لتأمين قيمة المؤنة، ورأى أودو أوف دويل أن السبب في ذلك يعود إلى تعرّض هذه المنطقة لغارات السلاجقة، بجانب القحط الشديد فيها، بالإضافة إلى ضخامة أعداد القوات الفرنسية مع أعداد القوات الألمانية، التي كانت في انتظارها. (Deiul,1948,133-135).

ولما رأى البيزنطيون تردي الأوضاع الاقتصادية لدى القوات الألمانية باعوا لهم كل الأشياء التي يحتاجون إليها، ودون أن يتقاضوا أدنى أرباح من جهة، كما أنهم اشتروا من الألمان كل ما عرضوه للبيع بأسعار غالية من جهة أخرى (Deiul,1948,133-134).

ويتضح أن في رواية هذا المؤرخ عن الغارات السلجوقية على أضاليا دليلًا للردّ على من اتهم الإمبراطور مانويل بالتحالف مع السلاجقة ضد قوات الحملة، فلو عُقد هذا التحالف فعلًا؛ لما أغار السلاجقة على منطقة حليفهم البيزنطي، وزيادة على ذلك عندما أرادوا استكمال رحلتهم البرية، لفت البيزنطيون نظرهم إلى صعوبة ذلك الطريق، وأن مسيرته تحتاج إلى أربعين يومًا، بالإضافة إلى أنهم سيمرون بأراضي السلاجقة الجدباء

(Deiul,1948,131). وهذه نصيحة أخرى تحمل الدلالة على شدة حرص البيزنطيين على المحافظة على سلامة القوات الصليبية، ولو كانت النوايا البِيزِنْطِيَّة سيئة تجاههم لتركوهم لقمة سائغة للسلاجقة، خاصة بعدما أدركهم التعب الشديد (عمران،1984م،158).

خامسًا: موقف المصادر من اتهام الغرب الأوروبي لبيزنطية:

نتيجة لكل ما سبق، ودون الوقوف على كافة أحداث الحملة الصليبية الثانية؛ فيتضح أنها فشلت في تحقيق هدفها الأساسي؛ وهو استرداد إمارة الرها من أيدي المسلمين، وتأمين الجهة الشمالية لبلاد الشام (وليم الصوري ،1994م، ج3: 309-320؛ ابن واصل ،1953م،ج1: 112-113؛ ابن القلانسي، 1908م، 298-300). وبعد هذا الفشل ثار الجدل والنقاش بين المصادر المعاصرة - سواء البِيزِنْطِيَّة أو الصليبية- وكذلك في الدراسات التاريخية المعاصرة حول حقيقة موقف بيزنطة من الحملة، وهل بالفعل كانت سببًا رئيسًا لهذا الفشل؟

كان من الطبيعي أن يُلقي الغرب الأوروبي بمسؤولية فشله على عاتق الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة؛ حتى أن أودو أوف دويل صرّح باتهامه للإمبراطورية بالخيانة، وخاطب عاصمتها القسطنطينية ووصفها بعدة أوصاف، فهي مغرورة بثرائها الواسع، وذات غدر في سلوكها، وإيمانها مهرطق، وتخشى من نظرة الطامعين من حولها، بما لديها من نعيم؛ لكنها تثير الكثير ضدها بسبب صفة الخيانة التي جرت في عروقها، وللأسف لو لم تكن هذه الخصال الذميمة بها؛ لأصبحت من أجمل بقاع الدنيا كلها (Deiul,1948,91).

ومن ثم توالت مُطالبات الغرب بضرورة الانتقام من بيزنطة؛ لأنها العدو الأول لهم؛ بل والأكثر خطورة على الحركة الصليبية؛ حتى أن مستشار الملك الفرنسي سوجر[7] Suger كتب رسالة إلى الملك النورماني روجر الثاني، أشار فيها إلى أن قلوبهم تتطلّع إليه لينتقم من البيزنطيين الخونة وإمبراطورهم، فنرجو منك سرعة النهوض والقدوم لمساعدتنا نحن شعب الرب، وتثأر لكرامتنا التي أُهدرت (Vasiliev,1952,423).

كان الاتهام الأول الموجّه لبيزنطة، أنها كانت تطلب من زعماء الحملة أداء يمين الولاء والطاعة لها في المقام الأول، وعُرف هذا الأمر من أيام الحملة الصليبية الأولى، التي التزم أمراؤها بتقديم يمين الولاء، وظل هذا المطلب مستمرًا لكل قادة الحملات التالية، حيث ذكر كيناموس أن الإمبراطور مانويل طلب بواسطة سفرائه إلى كل من مَلِكَي فرنسا وألمانيا - لأنهما قائدا الحملة الصليبية الثانية- أن يتأهبا لأداء قسم الولاء للإمبراطور فور لقائهم به؛ حتى يأذن لهما في العبور بقواتهما عبر الأراضي البِيزِنْطِيَّة والانتقال إلى آسيا الصغرى (كيناموس،1997م،81).

وأكد ذلك نيكيتاس خونياتس؛ إذ ذكر أن الألمان أوفدوا رسلهم إلى مانويل حتى يطلبون منه السماح لهم بعبور أراضي بيزنطة، مع توفير المئونة اللازمة لهم ولدوابهم خلال عبورهم؛ فاستجاب مانويل لمطلبه مع شرط أداء يمين الولاء له، وألا يرتكبوا أعمال عنف وتدمير في الأراضي البِيزِنْطِيَّة (Choniates, 1984, 36). وتعدّ هذه اليمين دلالة على الولاء، ورمزًا للتنظيم السياسي من وجهة نظر الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة، وليست حجرَ عثرة في طريق الحملات الصليبية، كما نظر إليها الغرب الأوروبي، وزيادة على ذلك، فاليمين كانت يمينًا إقطاعيًّا أوروبيًّا، وساد انتشارها في العصور الوسطى، ولم تكن يمينًا بيزنطية، وقد أصرّت بيزنطة على أخذ اليمين في المقام الأول؛ لعلمهم بشدة كراهية الغرب الأوربي لهم، وهذا ما حدث بالفعل في أثناء الحملة؛ حتى أن المؤرخين البيزنطيين المعاصرين أشاروا إلى هذه المشاعر، وحتى اللاتين أنفسهم كانوا قد أدركوا المخاوف منهم لدى البيزنطيين (Magdalino,2000,47).

أما فيما يتعلّق بالاتهامات التي أُلصقت ببيزنطة، وبالأخص النوازل والنكبات التي حلّت بالقوات الألمانية، حتى أن نيكيتاس كونياتس اتفق مع المؤرخين الصليبين في اتهاماتهم لبيزنطة بخيانة الصليبيين، وذكر أن المواطنين البيزنطيين قد ارتكبوا كثيرًا من الأفعال الآثمة؛ مما أثار اشمئزاز من حولهم منهم، ولم تدركهم مشاعر الرحمة تجاه الصليبيين الغرباء، متناسين أنهم إخوة في الدين، كما أنهم تلاعبوا بالعملة، وغشّوا في الميزان والمكيال، وحرموهم من أي مساعدة ولو بِقِطَع الخبز، كما هربوا بالذهب والفضة، وزيادةً في النكاية بالصليبيين صنعوا مزيجًا قاتلًا يجري عن طريق خلط الشعير بالجير؛ وكل هذه التصرّفات السلبية تجاه الصليبيين كانت بإيعاز من الإمبراطور البيزنطي (Choniates , 1984 39). وأردف القول عن الإمبراطور البيزنطي بأنه يخفي كل تصرّفاته خلف قناع الكذب، كما أنه غشّ العملة الفضية للفرنسيين، وأوعز إلى قوات السلاجقة يُشجّعهم على قتال الألمان (Choniates, 1984, 40).

وتساءل المؤرخ أنجولد Angoldعن سبب اتهام مؤرخ بيزنطي للإمبراطور مانويل بذلك، واتجه إلى تبرير ذلك بما ورد عند نيكيتاس، بأنه قد كتب تحليله في الفترة التي ظهرت فيها بوادر فشل مانويل في السياسة الخارجية على السطح، إلى جانب تأثره في النكبات والكوارث التي لحقت بالإمبراطورية في العقدين الأخيرين من القرن الثاني عشر الميلادي، وأن نهاية الحملة الصليبية الفاشلة قد ترتّب عليها شدة كراهية الغرب الأوربي لبيزنطة؛ مما أدى إلى حلول كارثة عام 1204م/600هـ، عندما اجتاح الصليبيون القسطنطينية العاصمة؛ ولذلك حمّل الإمبراطور مانويل مسؤولية النتائج المترتبة على هذه الكوارث (Angold, 1998, 169).

---

[7] سوجر: ولد في عام 1081م / 473هـ، وتلقى تعليمه في دير سانت دينيس St.Denis، وأصبح رئيسا لدير توروي Toury في عام 1109م /502م ، ومُنح لقب كاردينال بمجلس اللاتيران الكنسي الأول في عام 1123م /517هـ، وكان قريبًا من الملك الفرنسي لويس السابع حتى أصبح مستشارا له، ثم تولى الوصاية وصيا على إدارة المملكة الفرنسية خلال غياب الملك الفرنسي في الحملة الصليبية الثانية في الشرق في الفترة (1147-1149م/542-544هـ)، وبرع في إدارة المملكة بنجاح؛ ولذا كرّمه الملك الفرنسي بعد عودته من الشرق ومنحه لقب "والد الأمة الفرنسية"، وتمكن سوجر من تأليف كتابين: أولهما كتاب الإدارة ، والآخر عن سيرة الملك الفرنسي لويس السادس، وتوفي سوجير في عام 1151م/546هـ، انظر:(سليمان ،2006م ، ص5-8).

أما فيما يتعلّق بتحليل وتفسير ردود أفعال الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة وأفعالها إزاء الحملة بكافة أحداثها، وفي عشية دعوة الغرب لهذه الحملة الجديدة؛ سادت حالة من الفزع العام بيزنطة؛ مما أدى إلى إحياء نبوءات وأساطير قديمة تدور فكرتها حول تدمير القسطنطينية؛ وبالتالي انتشرت الشائعات والتوقّعات المرعبة، وأنها ستتحوّل إلى حقيقة مجردة عند وصول الصليبيين إلى القسطنطينية (Magdalino , 2002, 27).

ولعل في اتخاذ مانويل العديد من الاحترازات الوقائية، كترميم أسوار قلاع المدينة؛ دلالة واضحة على حالة الهلع والخوف التي خيّمت على شعور البيزنطيين، وفقًا لما ذُكر عند نيكيتاس كونياتس (Choniates, 1984, 36). وأشار كيناموس إلى أنه قد ساد شعور اليقين الجازم لدى البيزنطيين بأن هدف الصليبيين الحقيقي السيطرةُ على أراضيهم (كيناموس،1997م،86)، ولم ينته التهديد المباشر للحملة إلا بعد عبور القوات الألمانية والفرنسية مضيق البسفور إلى بلاد آسيا الصغرى، ولم يكن عبور قواتهما بالأمر اليسير؛ بل واجهت مانويل صعوبة بالغة في سبيل إقناعهما بذلك كما ذكر كيناموس (كيناموس،1997م،89).

أما لويس السابع فقد استخدم أسلوب المراوغة والتسويف؛ ولذا عمد مانويل إلى بثّ شائعة مفادها انتصار الألمان الباهر على السلاجقة في آسيا الصغرى، وأنهم سيتأهّبون لغزو قونية؛ ولذلك عبر الفرنسيون البسفور سريعًا؛ حتى يشاركوا الألمان أمجاد النصر والغنيمة. وتدلّ رواية أودو أوف دويل على مدى خطورة القوات الفرنسية على أمن القسطنطينية (Deiul,1948,73).

أما عن البيزنطيين فقد أدركوا أن الحملة الصليبية الثانية أعظم خطرًا عليهم من الحملة الصليبية الأولى 488هـ/1095م، التي جاء جانب منها تلبية للمطالب البِيزِنْطِيَّة، أما الحملة الصليبية الجديدة (الثانية) 541هـ/1147م، فجاءت تلبية لنداء الغرب بعد سقوط إمارة الرها الصليبية في يد المسلمين 540هـ/1144م؛ ويعني هذا أن بيزنطة لم تطلب هذه الحملة (Magdalino,2002 , 18). وزيادة على ذلك؛ فإن الإمبراطور مانويل كان يخشى الخطر الصليبي أكثر من خطر السلاجقة (Lilie, 1991,35).

لكل ما سبق؛ اعتقد العديد من المؤرخين أن الحملة جسّدت خطرًا جاثمًا على مناطق نفوذ الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة في الشرق الصليبي، ورأى مانويل أن مجيء الصليبيين من الغرب فيه دعم ومساندة للإمارات الصليبية؛ حتى إنها إذا نجحت في مهمتها، فإن ذلك سيهدّد المكاسب التي حققها مانويل على حساب الوجود الصليبي - خاصة في أنطاكية- وبالتالي ازدياد قوة الإمارات الصليبية، وستكون الاستجابة لمطالب بيزنطة فيها أمرًا بالغ الصعوبة (Berry,1955,471)، ولم تتناسب الحملة مع أهداف السياسة الخارجية لبِيزِنْطة؛ وقضت على تلك الأهداف على نحو واضح؛ ولهذا اضطر مانويل للتنازل عن سياسة الهجوم في الشرق على آسيا الصغرى؛ وذلك حتى تتفرغ قواته لمراقبة عبور القوات الصليبية لأراضي بيزنطة، وحرص مانويل على أن يُؤمّن ظهره قبل أن يتفرّغ لمواجهة الخطر الصليبي القادم من الغرب الأوروبي؛ لذا عقد الهدنة مع السلاجقة.(Lilie,1993,149)

ونتيجة لما سبق؛ ندرك أن الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة عانت بشدة من قدوم الحملة الصليبية، ومن دلائل تلك المعاناة: أنها فتحت المجال للملك النورماني الفرصة حتى يشنّ هجومه على السواحل الغربية لبيزنطة الغربية؛ لأن السواحل كانت مكشوفة، بسبب انشغال مانويل بمتابعة تحركات قوات الحملة ورصدها (عبدالله،2021م،285).

وتتفق المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية على أن الملك النورماني حمل معه كل الأشياء الثمينة إلى صقلية (كيناموس،1997م،87; Otto of Fresing,1966,69)؛ حتى أن نيكيتاس خونياتس ذكر أن كل من يرى السفن الصقلية وهي محمّلة بالأشياء الثمينة، فلن يتوقّع أحد أنها سفن قراصنة؛ بل سيتوقّع أنها سفن تجارية تحمل على متنها سلعًا متنوّعة (Choniates , 1984 , 45).

ولذلك فمن الخطأ القول – كما تعتقد هسّي– أن روجر ولويس كان النقاش بينهما يدور حول التخطيط للاستيلاء على القسطنطينية، بوصفه حافزًا أوليًّا لهم لما سيحصلون عليه من مكاسب في الشرق (هسّي،1997، 191)؛ لكن في النهاية نقف على رأي ستيفن رانسيمان، الذي رأى أن إنجاز الحملة ظهر في توتر العلاقات بين مسيحي الغرب وبيزنطة؛ وبالتالي إلى القطيعة بينهم (رانسيمان، 1968م، ج 2: 463).

الخاتمة

في النهاية ومن خلال محاور البحث؛ أظهرت الدراسة العديد من النتائج، من أهمها:

- أن المصادر البِيزِنْطِيَّة والصليبية تنافست في توضيح حقيقة الموقف البيزنطي من الحملة الصليبية الثانية.
- حدوث انعكاسات عديدة للعَداء القديم والمستمر بين الإمبراطورية البِيزِنْطِيَّة والنورمان على الحملة منذ بداية الدعوة والاستعداد لها، وفي ثنايا أحداثها.
- مثّلت الحملة الصليبية العبء الثقيل على عاتق بيزنطة.
- وقوع الإمبراطور مانويل كومنين في الحيرة فيما بين الخوف من غدر قوات الحملة، وتقديم المساعدة الواجبة لهم.
- أوضحت الدراسة من خلال المقارنة بين المصادر المعاصرة والدراسات الحديثة، العديد من الاتهامات التي وُجّهت لبيزنطة وحمّلتها مسؤولية ما أسفرت عنه الحملة من فشل في النهاية.

المختصرات الواردة في البحث:

- Ch.H: Church History
- M.S: Mediaeval Studies.
- Setton: A History of The Crusades ,5 Vols.,U.S.

المصادروالمراجع

ابن الأثير، ع. (1966). *الكامل في التاريخ*. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن القلانسي، أ. (1908). *ذيل تاريخ دمشق*. بيروت.

ابن واصل، ج. (1953). *مفرج الكروب في أخبار بني أيوب*. القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول.

أبو شامة، ش. (1974). *ذيل الروضتين*. بيروت: دار الكتب العلمية.

الحموي، ي. (د.ت) . *معجم البلدان*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

الصوري، و. (1994). *الحروب الصليبية*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كيناموس، ي. (1997). *أعمال يوحنا ومانويل كومنينوس*، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية. دمشق: دار الفكر.

الجنزوري، ع. (2001). *إمارة الرها الصليبية*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

رانسيمان، س. (1968). *تاريخ الحروب الصليبية*. (ط2). بيروت: دار الكتب العلمية.

زيتون، ع. (1980). العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى. دمشق: دار دمشق.

زيدان، ع. (2016). العلاقات الألمانية البِيزَنْطِيَّة في ضوء الحملة الصليبية الثانية. *مجلة جامعة البعث، سوريا*، 38(14)، 11-41.

سعداوي، ن. (1957). *ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

سليمان، م. (2006). فرنسا في ضوء مدونة المؤرخ سوجر رئيس دير سانت دينيس 1108-1137م: دراسة تاريخية تحليلية. *رسالة دكتوراه غيرمنشورة*، كلية الاداب، جامعة الإسكندرية.

عبد الحميد، ر. (1998). *قضايا من تاريخ الحروب الصليبية*. القاهرة: دار عين.

عبدالله، م. (2015). *مصادر تاريخ العصور الوسطى*: التاريخ البيزنطي. القاهرة: مصر العربية للنشر.

عبدالله، م. (2021). *الدولة البيزنطية*: التاريخ السياسي. القاهرة: الدار الثقافية للنشر.

عبد الوهاب، ي. (2010). الزواج السياسي وأثره في علاقات بيزنطة بالغرب الأوربي (972 – 1204م). *مجلة كلية الآداب، جامعة بنها*، 23، 435-530.

عبيد، ت. (1970). *روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية (869 – 1204 م)*، القاهرة: دار المعارف.

عمران، م. (1984). *السياسة الشرقية للإمبراطورية البِيزَنْطِيَّة في عهد الإمبراطور مانويل الأول (1143 – 1180 م)*. الإسكندرية: دار المعارف.

عمران، م. (2006). *منهج البحث التاريخي*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.

فريد، م. (1896). *تاريخ الدولة العليا العثمانية*. القاهرة.

مقامي، ن. (1989). العلاقات بين الدولة البِيزَنْطِيَّة والنورمان في جنوب إيطاليا وصقلية من 1025-1197م. *رسالة دكتوراه غير منشورة*، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر.

نيكول، د. (2003). *معجم التراجم البيزنطية*. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

همّي. (1997). *العالم البيزنطي*. القاهرة: دار عين.

References

Syriaec, C. (1933). *The First & the Second Crusades*. London: The Royal Asiatic Society.

Choniates, N. (1984). *O city of Byzantium: annals of Niketas Choniatēs*. Wayne State University Press.

De Deuil, O. (1948). De profectione Ludovici VII in orientem= The journey of Louis VII to the East. *(No Title)*.

Mierow, C. C. (Ed.). (2004). *The Deeds of Frederick Barbarossa* (No. 49). Columbia University Press.

Angold, M. (1988). *The Byzantine Empire, 1025-1204: a political history*. Longman.

Berry, G. V. (1955). *The Second Crusade*. In *A History of the Crusades*, Philadelphia.

Brehier, L. (1947). La Vie et la Mort de Byzance, III.

Chalandon, F. (1913). *Les Comnenes*. Paris: Jean II Comnene et Manuel Comnene.

Curtis, E. (1912). *Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy, 1016-1154*. AMS Press.

Daly, W. M. (1960). Christian Fraternity, the Crusaders, and the Security of Constantinople, 1097-1204: The Precarious Survival of an Ideal. *Mediaeval studies*, *22*, 43-91.

Nicolle, D. (2009). *The Second Crusade 1148: Disaster Outside Damascus* (Vol. 204). Osprey Publishing.

Grabois, A. (1985). The crusade of King Louis VII: a reconsideration. *Crusade and Settlement*, 94-104.

Jeffreys, E. M. (1980). THE COMNENIAN BACKGROUND TO THE" ROMANS D'ANTIQUITÉ". *Byzantion*, *50*(2), 455-486.

Lilie, R. J. (1993). Byzantium and the Crusader States–, trans. JC Morris and JE Ridings.

Magdalino, P. (2002). *The Empire of Manuel I Komnenos, 1143-1180*. Cambridge University Press.

Makk, F. (1989). *The Árpáds and the Comneni: political relations between Hungary and Byzantium in the 12th century*. Akadémiai kiadó.

Ostrogorsky, G. (1968). *History of Byzantiome state*. Oxford: Trams. J. Husy.

Rowe, J. (1959). *The Papacy and The Creeks*.

Vasiliev, A. A. (1964). History of the Byzantine Empire, 324-1453. *(No Title)*.

Venning, T., & Harris, J. (2006). *A chronology of the Byzantine Empire*. Springer.

Wieruszowski, H. (1962). *The Norman kingdom of Sicily and the Crusades*. University of Pennsylvania Press.